الفصل الرابع

فى تثبيت الرسالة وايجاب النبوّة

أقول أنّ منكرى الرُسُل صنفان أحدهما المُعطّلة الذين ينكرون إثبات البارئ سبحانه فلا وجه للكلام معهم إلّا بعد إقرارهم بالتوحيد والثانى البراهمة اقرّوا بالصانع وانكروا الرسالة واحتجّوا بأنّ الرسول لا ياتى إلّا بما فى العقل او بخلافه فإن كان يأتى بموجب العقل فما فى العقل كافٍ مما يجب لله تعالى على العباد من معرفته وتوحيده وشكره وعبادته واستعمال الحُسْن واستقباح القبيح وان كان يأتى بخلافه فلا وجه لقبوله لأنّ الخطاب وقع على نوى العقول والقضيّة لها والتميز اودعتاها فاجابهم المسلمون بأن الرسول أبدًا لا يأتى إلّا بما فى العقول إيجابه أو تجويزه وحاشا لله ولرسوله أن يأتوا بخلاف ما فى العقول ولكن من الأشياء مما يغمض ويلطف حتى يخطئه العقل او يخفى ويحتجب حتى

يقصر دونه العقل كانتفاع الانسان بما ينزع اليه نفسه ويشتاق اليه طبعه من ملاذّ الاغذية والملاهى المقوّية فانه حَسَنٌ فى العقل الأخذ منها بقدر الحاجة بل واجب وغير حسن اذا كان لا يملكها الانتفاع بشئ منها الّا بعد الإذن من مالكها فصار فعل العقل فى حال خلاف فعله فى حال فدلّ ان العقل لا يستغنى بنفسه ولم يضامّه شئ من السمع مع أنّ العقل محتاج الى الرياضة والتمييز والسمع والتجارب لا غير موهوم لو ان اكمل الخلق عقلًا واوفاهم فطنةً غُيّب عن الناس وليدًا حتّى لم يسمع شيئًا إلى ان بلغ فأدرك انه يمكنه استخراج علم الفلسفة والهندسة والطبّ والتنجّم وغير ذلك فدلّ هذا كلّه أنّ العقل غير مكتف به ولا بدّ من معلّم ومعرّف وهادٍ ومذكّر ولا يجوز ان يقع العلم بهذه الاشياء إلهامًا ضروريًّا لانّا ليس نشاهد ذلك فى أجناسها وامثالها وان لا يكون كلّها بالا ستخراج والاستنباط من غير مقدّمة وأصل سابق فان قيل اذا كان البارئ مريدًا لصلاح خلقه غير بخيل[1] ولا عاجز ولا يمسّه تكلّف ولا علاج فيما يفعله فهلّا جعل خلقه رُسلًا وألهمهم من

[1] Ms. بحيل.

العلم ما استغنوا بـه على الرسل او حبس طباعهم عن التخطى إلى محظور قيل لو فعل ذلـك لم ينزلهم دار البلوى. والامتحان ولا عرّضهم لشرف الثواب وما هو إلّا كقول من يزعم لِمَ خلق الله الخلق وأسقط عنهم التكليف وابتدأهم فى الجنة وهذا باب التجويز [fo 22 ro] والتعديل وليس كتابنا هذا بنَيْنَا له[1] ولكن لو فعل كان له ما فعل فإذا لم يفعل فنقول أساء أو جهل او عجز وهذا الظنّ نقض التوحيد وإبطال الدين فيعاد الكلام فيه وتقرّر بأنه عادل حكيم لا يفعل إلّا الأصلح بخلقه والاعود عليهم ولو جعلهم كلّهم رُسُلًا لوجب أن يسوّى بينهم فى الفضل والعقل والجاه والمال والقوّة ولو فعل لما عرف فاضل فعله ولا قوىّ قوّته ولما شُكر وحُمد فى إسقاط موجبات الشكر والحمد وإباحة الفكر والذمّ وهذا قبيح فى العقل فدلّ أنّه لم يُجز التسوية بين الخلق لا فى الحال ولا فى المال ولا فى الرسالة فان طعنوا فى الرسالة بما يوجد فيها مَن سفك الدمآء وذبح البهائم وإيلام الناس فإنّ العقل لا يردّ شيئًا من ذلك إذا كان فيه ضرب من الصلاح كما

[1] Corr. marg. لهذا بنيناه.

يكره الانسان على شرب الأدوية الكريهة وعلى الفَصْد والحجامة وقطع بعض الجوارح عند انتظار مخوفة وتأديب الأطفال وغير ذلك فيوجب عليه أن لا يردع ظالمًا ولا يقتصّ من جارحةٍ وهذا قبيح وترخيص فى الفساد ومن أعظم الدلائل على وجوب الرُّسل هذه اللُّغات المختلفة التى تلقّظ الناس بها ويتعارفون بها ما يحتاجون الى معرفته ولا بُدّ من معرّف ومعلّم لها اسمآء المسمّيات باختلاف اللغات وكذلك الصناعات والآلات التى يتوصّل بها اليها وليس فى وسْع الناس استخراج لغة ووضع لفظ يتّفقون عليه إلّا بكلام سابق به يتداعون ويتواضعون ما يريدون وليس فى المعقول معرفة ذلك ولابدّ من معلّم قال الله عزّ وجلّ وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ثمّ إذا صحّت النبوّة ووجبت الرسالة بقى أن يُعلم الفرق بين النبّى وبين المتنبّى لأنّ الأشخاص متساوية متماثلة ففرّق الله تعالى لما اراد من أقامه حجّته وإظهار دعوته بين الصادق والكاذب منهم بما خصّه به من الآيات الباهرة والعلامات المعجزة الخارجة عن العادة والحسّ وذلك معروف معدود كما

يُحكى عن موسى وعيسى ومحمّد عليهم السلم وغيرهم من الانبيآء صلوات الله عليهم اجمعين

القول فى كيفيّة الوحى والرسالة، أقول أنّ المسلمين ومن قبلهم اختلفوا فى هذا الباب اختلافًا كثيرًا فزعمت طائفة أنّ الوحى إلهام وتوفيق وزعم آخرون أنّه قوّة الروح القُدسىّ وعند الفلاسفة النبوّةُ علم وعمل والمسلمون يقولون الوحى على وجوه فمنه الإلهام ومنه الرويا ومنه تلقين ومنه تنزيل وهذه مسئلة من فصل الصفات اغفلناها فى موضعها فحرّرناها فى هذا الفصل وهى كيفيّة القول والفعل من الله لأنّ اهل الاسلام فى ذلك مختلفون فزعم بعضهم أنّ كلام الله فعل منه فهو به متكلّم وكذلك إرادته ومشيّته وحُبّه وبُغضه وقوله كُنْ فَيَكُونُ تكوين منه للشئ والقول زيادة قالوا لأنّ هذه الاشيآء أعراض تحلّ فى مواضع لها معلومة وليس هو بمحلّ الاعراض وقال عامّتهم ان الفعل تكوين [f° 22 v°] وإيجاد من غير معالجة بجارحةٍ إلّا مَنْ شَذّ فزعم انّه يخلق بيدَيْه والافعال على وجوه كثيرة فمنه الفعل بالقصد والاختيار ومنه الفعال من غير قصد على السَهْو ومنه الفعل بالاتّفاق والبحث

وكلّها حركات ومنه فعل التولّد كما ينفعل الشئ بطبعه وفعل الله تعالى غير مُشبّه بشئ ممّا ذكرنا وزعم قوم أنّ كلامه ليس من أفعاله وفرقوا بين القول والفعل ولقد امتدّ بنا القول إلى هذه وما كان قصدُنا ان نبلغ كلّه ولكن لما رجونا من الخير وأمّلناه من هُدَاتِهِ الناظر فى كتابنا واهتدآئه به ولمّا نرى من فساد الزمان وأهله وتحرم طالع الالحاد والنفاق واعجاب كلّ ذى حرفين بنفسه لإنتقاض العلمآء ودروس آثارهم وما قدّمت من عمل هو أَوْكَدُ فى نفسى ام لا[1] وأوثق عُدّة من جميع هذا الكلام والاجتهاد فى شرحه وأسئل الله الذى منّ وأعان أن يعصم من نزغات الشيطان وينفع به الناظرين والمستفيدين وان يرحم من عذرنا فى تقصير إن كان منّا وقام بتقويم أَوَدِهِ وإصلاح غلطه مشاركًا لنا فى ثوابه وأجره فلم يتعمّد فيه خطاء وتحريفًا ولا حملتنا الحميّة والتعصّب على تزيّد أو إبطال أو تغيير رواية أو حكاية بل سُقناها علىٰ وجهها وأدّيناها بأوجز لفظها لعلمنا بعموم الحاجة اليه من الأعاجم والأُمّيّين مبتدئ المتعلّمين،

[1] Ms. املا.